القراءة الاركيولوجية لعدمية نيتشه

((أما أن أحيا كما أريد، أو لا أحيا مطلقاً)) نيتشه

ان طبيعة الفكر المتحركة بأستمرار تفرض حضورها كمقياس لقراءة التحولات المعرفية ورصد اهم الفجوات التاريخية التي قد تحدث شرخاً مع السابق ، ورغم ان الفكر الفلسفي الغربي الحديث استمر اميناً لسلطة اللوغوس [*] منذ افلاطون الا انه تضمن شيء من التحول بصعود عصر النهضة من القرن الرابع عشر الى القرن الثامن عشر فثمة انتقالة من العقلانية الميتافيزيقية للفكر الفلسفي القديم الى العقلانية المادية مع الفكر الفلسفي الحديث الذي أمن بسلطة العقل ومركزية المادة كأساس للمعرفة اتضحت من خلال طروحات ديكارت ، كانت ، هيجل ، شوبنهاور ((فقد بدأ تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة بظهور العقلانية المادية التي عبرت عن نفسها في بداية الامر من خلال النزعة الانسانية (الهيومانية) [**] في عصر النهضة التي جعلت الانسان الواعي مركزاً للكون ، ولكن ظهر في الوقت نفسه فلسفة علمانية جعلت من المادة غير الواعية مركزاً للكون وتاريخ الفلسفة الحديثة هو تاريخ للصراع بين الرؤيتين ... وقد تصاعدت هذه النزعة الانسانية العقلانية في القرن الثامن عشر ، عصر العقل والاستنارة حينما نجحت الفلسفة النقدية التجريبية في ان تقضي تماماً على الاساس الديني للمعرفة والاخلاق ، وفي ان تجعل المادة المتغيرة وقوانينها المرجعية الوحيدة والركيزة الاساسية)) [١] ومع ان المعرفة في تلك المرحلة خرجت عن طور الدين والاخلاق وانحازت لعالم المحسوسات الا انها اسست لنظماً معرفية واخلاقية تفترض وجود ثوابت وكليات تستدعي فكرة الاصل والنموذج الميتافيزيقي وبعض المطلقات كالحتمية التاريخية والعقل المطلق والايمان بالتقدم .

على ان القرن التاسع عشر تقدم برؤية مغايرة اعلنها نيتشة من خلال دعوته للخروج من ظل الاله وتحطيم اصنام العقل المتمركزة حول فكرة الثوابت واليقينيات ، ولاجل فهم اوسع لفلسفة نيتشة تقتضي الضرورة القراءة الاركيولوجية لاحداث القرن الثامن و التاسع عشر . ومن اهمها افول حكم نابليون ، ثم اضمحلال الامبراطوريات الكبرى (الرومانية ، المغولية ، الاسبانية ، البرتغالية) لتتصدر الامبراطورية البريطانية العالم الغربي كقوة عظمى تضاعفت مع ما قدمته الثورة الصناعية ، فالثورة الصناعية كمجموعة تحولات علمية

---

[*]) اللوغوس : مصطلح يوناني يأتي بمعنى الكلام او العقل أو القانون ، وقد ورد في الحقل الديني لتفسير القانون الكلي المنظم للكون وفي الفكر الفلسفي تعلق المصطلح بمعنى المنطق ومنهجية التفكير الصحيح . فاللوغوس يُعنى بالمعرفة واليات انتظامها

[**]) الهيومانية او الانسانوية : «عبارة عن كل نوع من الآراء أو الآفاق الفكرية والفلسفية القائلة بوجود قيمة استثنائية رفيعة للإنسان وللتجارب والرغبات والحقوق الإنسانية

[١]) عبد الوهاب المسيري : نيتشه فيلسوف العلمانية الاكبر ، مجلة اوراق فاسفية العدد الاول ص ٣

واجتماعية واقتصادية يمكن رصد صورتها من خلال الانتعاش الاقتصادي ثم الانتقال من النمط القروي الى نمط المدني بعد اكتشاف الالة البخارية بما وضع العالم الغربي على عتبة عصر التصنيع وعلى نحو خاص فرنسا واوربا والمانيا وامريكا الشمالية لتنتقل اوربا من نظام اقتصادي يمكن توصيفه بالرأسمالية الزراعية الى رأسمالية صناعية . كما اسست الثورات الكبرى كقوة مقاومة للانظمة السلطوية (الثورة الفرنسية وثورة العبيد [*]) الارضية الملائمة لتحطيم صنمية الفكر و معاداة العبودية بل القضاء عليها .

اما على مستوى المعرفة فقد حققت العلوم البايلوجية تطوراً في دراسة الطبيعة غادرت به نموذج الفلسفة الالية – السببية وكذلك الغائية ، لتتخذ موقفاً مادياً مع داروين الذي غادر اليقنيات والثوابت الراسخة عندما فسر حركة الطبيعة والوجود من خلال فكرة التطور القائم على حركة مستمرة لخصها بقانون البقاء للاصلح او الاقوى فداروين توصل الى ان جميع الكائنات تعود الى مبدأ واحد في المادة وهو الحياة وهذه الكائنات تدخل في صراع دائم يهزم بها الاضعف ويندثر ليستمر الاقوى .

وهكذا وجهت الاحداث الكبرى للقرنين الثامن والتاسع عشر التفكير الفلسفي النيتشوي نحو اعادة النظر بالماضي وقيمه الراسخة متخذاً موقفاً مغايراً يبدأ من الحياة وجدلية علاقات القوى كأجراء لتقديم معنى جديد للحياة بعد ان تسللت روح التشاؤم الى المجتمع الغربي مع سلسلة الحروب والثورات وما انتجته من دمار وموت ، ثم دخول العالم الحديث عصر الالة والتصنيع والعلوم ، بما استدعى تقويض سلطة اللاهوت والقيم المثالية للعقل الميتافيزيقي وثنائياته التراتبية (روح / جسد ، خير / شر ، غرب / شرق ، ذكر / انثى ، ابيض / اسود ، جميل / قبيح ، نور ، ظلام ....) ثم مغادرة فكرة النموذج والاصل والحتمي والمطلق فأذا كانت جهود مفكري القرن الثامن عشر قد قضت على النموذج الديني والاخلاقي فأن نيتشة قضى على العقلانية الصارمة و كل ما له علاقة بفكرة الاصل والمرجع وكل ما هو يقيني وثابت ((فقد كانت الفلسفة الغربية الحديثة في انتظار فيلسوف يأحذ الخطوة المنطقية المتضمنة في النموذج المادي ، ويحرر الانسان

***) ثورة العبيد – الثورة الهايتية ١٧٩١، - ١٨٠٤ : اندلعت ثورة العبيد كتمرد على الممارسات القمعية للعقل الابيض وتصنيفه للذوات بحسب العرق واللون فأوربا صنفت الانسان بين الابيض والاسود والهندي اما اختلاط الابيض مع الاسود فيعرف بالخلاسي (المولاتو) ايما يعرف بالمُوَلّد بحكم خصائص الوجه واللون. كلمة مولاتو بالإسبانية تعود لكلمة «mulo»وتعني بغل«،"لذي هو نتاج خليط سلالة الخيول والحمير، وبسبب العنصرية والمكانة الدُّونيّة للعبيد، يقارن الحمار بالشخص الأسود وابخيل بالشخص الأبيض. . وقد امتد ذلك التصنيف لفئات اخرى عرفت بأسم الزامبو و المستيزو الاولى تشير إلى سلالات السود والأميركيين الأصليين في امريكا اللاتينية (الهنود الحمر) أي الاختلاط بين السود والهنود ، اما المستيزو وتعني المختلط هم مجموعة عرقية ناتجة عن تزاوج المستعمرين الأوروبيين والإسبان على وجه الخصوص بالسكان الأصليين لقارة أمريكا الجنوبية وفي الأونة الأخيرة أصبح يطلق هذا المصطلح أيضا على الهنود الحمر والأفارقة المختلطين بالأوروبيين .**

وقد شارك الفرنسيون والإسبان والبريطانيون في ثورة هايتي، وبرز العبد السابق توسان لوفرتور ليصبح واحدًا من الأبطال الذين سحروا الجماهير. ووقد اسفرت ثورة العبيد عن تأسيس دولة خالية من العبودية ولا يحكمها البيض أو القادة السابقون. فقد تحدت ثورة تاهيتي المعتقدات الأوروبية القديمة حول دونية السود وفشل الخاضعين للاستعمار بتحقيق حرياتهم والحفاظ عليها.

من أي اوهام متبقية عن الثبات والتجاوز والكلية ، ويحقق العلمنة الكاملة لمجال الفلسفي بأن يطهره تماماً من ظل الاله أي من أي قيم وثوايت وكليات وثنائيات وغايات اخلاقية ومعرفية تتجاوز المادي والمباشر ويحطم تمام ما كان الفلاسفة يسمونه في الماضي مقدساً وخيراً وحقاً وجميلاً ومطلقاً وكلياً ومن ثم يتم القضاء تماماً لا على اليقين المعرفي والاساس الديني للاخلاق وحسب وانما يتم القضاء ايضاً على أي يقين معرفي بل وعلى فكرة الاخلاق ذاتها وعلى أي مركزية لاي كائن الهاً كان ام انساناً بل وعلى فكرة الوجود الثابت ذاتها وفكرة الكل الذي يتجاوز الاشياء أي ان العالم يصبح نسقاً سائلاً بلا يقين او معنى او غاية او هوية والانسان يصبح بلا ذات ولا حدود ولا استقلال ولا مركزية وهذه هو جوهر الاستنارة المظلمة : تحطيم الاوهام الهيومانية)) [١] وهنا يكون نيتشة قد احدث فجوة يمكن وصفها بالقطيعة الابستمولوجة في تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة فثمة خلخلة لكل القيم الراسخة للعقل الغربي مؤسساً لعتبة فلسفية جديدة تبدأ من العالم المادي المتغير دون أي قداسة مزعومة لأله او مطلق انساني فالانسان جزء من المادة / الطبيعة ولا فرق بينه وبين الكائنات الطبيعية فهو جسد وغرائز وبما ان الانسان جزء من الطبيعة فهو عاجز ان عن معرفتها وتجاوزها بوصفه جزء من كل لذا انطلقت دعوته لتحطيم اصنام العقل وهو المعنى الذي استدعى فكرة موت الاله [*] فإن ((موت الإله هو في حقيقة الآمر موت الدين وموت العالم المعقول الآفلاطوني وموت قيم الخير والشر في مجال الآخلاق، مما أدى إلى فناء ثنائية الأعلى والأسفل، المثل والمادة، الروح والجسد، وعلى اعتبار أن الكائن المتعالي هو القاسم المشترك بين الدين والميتافيزيقا والآخلاق)) [٢]

ان نيتشة بأدانته المنظومة المعرفية والاخلاقية الممتدة في النموذج الديني فهو يتخذ موقفاً عدمياً اطاح بكل القيم المتعالية ليؤمن بأولوية المادة والوجود والحياة كأرادة وقوة قدمها من خلال مؤلفه (ارادة القوة) عندما اجاب على سؤال ما معنى العدمية بالقول ((هي ان تنخفض قيمة القيم السامية ... قد تكون علامة قوة وربما تكون قوة العقل قد تنامت الى حد تبدو معه الغايات التي اراد العقل بلوغها حتى الان القناعات ((اركان العقيدة الدينية قذرة لان العقيدة تعبر عموماً عن ضرورة شروط الوجود عن الخضوع لسلطة نظام

---

[١]) عبد الوهاب المسيري : نيتشه فيلسوف العلمانية الاكبر ، مصدر سبق ذكره ، ص٤

[*]) ظهرت العبارة لأول مرة في مجموعة نيتشه عام 2881 في كتابه" العلم المرح "لم تكن في إطار احتفالي بل في سياق جنائزي ساخر مخاطب معاصريه على لسان شخصية رجل مجنون يحمل مصباحا ويبحث عن الإله في الشوارع والآسواق" لقد مات الإله ونحن الذين قتلناه كيف لنا أن نعزي أنفسنا ونحن ن قد نزف دمه؟ أية مراسيم أكبر القتلة؟ إن أقدس وأقوى ما ملك العالم إلى تكفيرية أية ألعاب مقدسة يجب علينا أن نبتكر؟

يصف نيتشه حدث موت الإله كواقعة اختفائه من ثقافتنا، فهو لا يتساءل عن وجوده ولا ينكره ,بالتالي ليس تعبير عن رأي شخص ي لأن ذلك سيؤدي به حتما إلى السقوط في فخ الميتافيزيقا ,إنه يتساءل عن مصير قيم وفكر داما ألفي سنة، إذن وجده جثة هامدة على قارعة طريق الضياع والمال والهيمنة الاقتصادية إنها قارعة طريق القرن التاسع عشر ,فبعد عصر التنوير أصبحت فكرة الكون التي تحكمه القوانين الفيزيائية وليست العناية الإلهية حقيقة واقعية، لقد أظهرت الفلسفة أن الحكومات لم تعد بحاجة إلى الالتفاف حول فكرة الحق الإلهي لكي تكتسب شرعية وجودها وإنما من خلال موافقة أو عقلانية المحكومين، تلك النظريات الآخلاقية الكبرى والمتسقة يمكن أن توجد دون الرجوع إلى الإله، فكان هذا حدثا جللا لم تعد أوروبا بحاجة إلى الإله كمرجعية للقيم أو النظام الكوني بل كانت الفلسفة والعلوم قادرتين على فعل ذلك من أجلنا، دفع هذا التصور إلى إدراك أن الإله لم يمت فقط بل إن البشر قد قتلوه بثورتهم .... صدام طاهري وحورية ص ٤- ٥

[٢]) صدام طاهري : محاولة نيتشه اكتساب معنى للحياة ، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية ، مجلد ١١، العدد ١، ٢٠٢٣، ص٥

اشياء يجعل كائناً ما ينمو ويزدهر ويكسبه القوة) وقد تكون علامة قوة غير كافية لاتخاذ هدف او شرط وجود او عقيدة وتبلغ ذروة قوتها النسبية حين تصير قوة تدمير عاتية أي عدمية فعالة وقد يكون نقيضها هو العدمية المتعبة التي لم تعد تهاجم واشهر اشكالها هي البوذية التي هي عدمية سلبية وفيها علامات ضعف قد تصير فعالية العقل متعبة ومستنزفة الى حد تبدو معه الغايات والقيم التي تم امتداحها حتى الان قذرة وتفقد حظوتها ويتفكك ائتلاف القيم والغايات الذي ترتكز عليه كل ثقافة متينة بحيث تدخل مختلف القيم في حرب ضد بعضها : انحلال .... عندها يأتي في المقام الاول كل ما يخفف الالم او يشفي او يهدي او يقوي متخذا اقنعة مختلفة دينية او اخلاقية ، سياسية او جمالية)) [١] وهنا نجد ان نيتشه يقدم مستويات للعدمية بين عدمية ضعيفة و سلبية كالبوذية بوصفها لم تجرأ على التخلص من شوائب الدين عندما دعت الى كبت الشهوات والرغبات الانسانية والنظر الى الحياة كمصدر للالم والشقاء على انه العدمية الايجابية يمكن ان تتحقق عندما تقلب القيم الراسخة فهنا تتحقق الارادة والقوة . فالحياة عند نيتشه تبدأ من القوة وكلما امتلك الانسان ارادة وقوة كلما اقترب من الانسان الاعلى وهذه القوة تتمثل في التعالي على القيم الاخلاقية والقانونية والاجتماعية ثم النزول عند الرغبات والغرائز الانسانية . وعند ذلك الموقف نجد ان نيتشه استفاد من شوبنهاور فيما يخص الارادة على انه يقلب المعادلة من عدمية تشاؤمية الى عدمية ايجابية تأخذ بالرغبات والغرائز كعنصر قوة لا ادانة وضعف . وأذا كان شوبنهاور قد ربط الفن بأنموذج متعالي يمكن تحقيقه بالزهد وكبت الرغبات فأن نيتشه يركز على الرغبات في الفن بأعتبارها موطن القوة للفنان وان مهمة الفن اثارة النشوة فيقول ((ان الشيئ الاساسي في اللفن هو كمال الكينونة ، هو الانهاء ،هو السير نحو الامتلاء الفن اساساً هو اثبات الحياة ومباركتها وتخمينها ... ويخطئ شوبنهاور حين يضع بعض اجزاء الفن في خدمة التشاؤم ... المأساة لا تعلم الانسان الاستسلام والفنان يعتبر تصويره للاشياء المرعبة والاشكالية دليلاً على كونه يمتلك غريزة القوة والسيادة)) [٢]

---

[١]) فردريك نيتشة : ارادة القوة – محاولة لقلب كل القيم ،تر . محمد الناجي ، افلريقيا الشرق – المغرب ، ٢٠١١، ص١٣

[٢]) فردريك نيتشة : ارادة القوة – محاولة لقلب كل القيم ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٧